البيت ليس فندقا ولا مطعما

— تعليق —

" نشرت هذه المجلة فى عددها الثالث مقالا عنوانه " البيت ليس فندقا ولا مطعما " . وقد جاءنا هذا التعليق عليه من قارئ يصف به نوعا من البيوت المصرية تجرى الحياة فيه على النحو الذى يصفه . ونحن ننشر هذا التعليق راجين أن تكون المبالغة فيه قد طغت على الحقيقة ، أو ألا تكون لهذا البيت أشباه كثيرة فى مصر . وحبذا لو تطوعت إحدى فضليات الكاتبات فأبدت لقراء رأيها فى هذا المقال "

المحرر

حضرة الأستاذ المحترم رئيس تحرير مجلة الشؤون الاجتماعية .

قرأت فى العدد الثالث من هذه المجلة مقالة " البيت ليس فندقا ولا مطعما " .

وراقنى هذه التفرقة بين " المنزل " وهو السكن أو البناء الذى تقيم فيه الأسرة ، و بين " البيت " وهو الأسرة نفسها ، يجمعها الحب و يربطها الدم ...

ثم أطلت التفكير فيما ينتهوه من أن كثيرا من الأزواج ينظرون إلى البيت كأنه فندق أو مطعم ، إذ يعودون من العمل اليومى ظهرا فيتناولون الغداء فى عجلة وصمت ، ثم يأوون إلى الفراش للقيلولة ، ثم يسرعون إلى الخروج لقضاء السهرة فى المقهى أو الملهى بين إخوان الصفاء ، و يعودون متأخرين للنوم . وهكذا لا يتمتع منهم زوجاتهم ولا أولادهم بالمؤانسة أو المسامرة اللتين هما حق لهم على رب الأسرة ، و يكاد الوالد ينسى واجباته نحو أبنائه أو يعتبرها من شؤون الأم وحدها ، ثم تتفاقم الحال فينتهى الزوج إلى حالة تشبه الانفصال من الزوجة... إلى آخر ما ذكرتم من نتائج وعواقب .

قرأت هذا كله ، فأخذت أحاسب نفسى ، لأنى واحد من أولئك الذين وصفتموهم ، وما من يبالى هجر الزوجة ولا الزهد فى إيناس المنزل وفى مسامرة الأولاد . وكم أتمنى و يتمنى الكثيرون من أمثالى لو كانت السبيل إلى هذا الايناس وهذه المسامرة سهلة ميسرة ، ولو كانت ربات المنازل عندنا قادرات على تهيئة هذه السعادة للأزواج .

ها كم صورة من حياة موظف، ومن حياة أسرة، واحكموا بعد ذلك هل الأزواج ملومون، أم الذنب على الزوجات ، أم أن لكليهما بعض العذر ؟ ولست أشك فى أنكم إنما عنيتم بنقدكم ، أمثالى من أوساط الناس ، ولم ترموا إلى عليا الطبقات أو سفلاها :

إنى لأخرج من عملى وقت الظهيرة ، والجسم منهوك والذهن مكدود ، فأنا ساعتئذ أحوج ما أكون إلى تسلية وتسرية عن النفس، وإلى حديث هادئ فكه مع زوجتى ، وإلى مداعبة لطيفة مع أطفالى .

ولكنى ما أكاد أدخل دارى حتى أستقبل بأنواع عجيبة من " المشهيات " وصنوف شاذة من " المسليات " فبين سيدة المنزل وبين الأطفال جدال عنيف حول بعض مطالبهم يعلو فيه الشتم من ناحية والصراخ من ناحية أخرى ، ولا تفهيم الأم الحنون من لكزة هنا ولطمة هناك ، ولا تخو الخادم من ركلة بالقدم أو رمية بقبقاب ! وإذا أنا قد جلست مجلس القضاء بين أولئك المتخاصمين ، من سيدة وخادم وأطفال .

ولا بد — لفتح النفس — قبل أن تمد المائدة ، وخلال تناول الطعام ، من تقرير شفوى تقدمه إلىّ السيدة الكريمة عما ارتكبت ابنتى الصغيرة أثناء النهار من مخالفات ، وما اقترف أخوها من جنح ، وما اجترحت الخادم من جنايات ! فأما الأولى فقد خطفت كرة أخيها ، وأما الثانى فقد ضرب طفلة من بنات الجيران فأبكاها، وأما الثالثة فكسرت فنجان شاى ونسيت إطعام الكناكيت إلى منتصف النهار .

ثم تنتقل من هذا إلى الشكوى من أن امرأة جارنا الذى يتقاضى أقل من مرتبى ، قد لبست قبلها " فساتين" صيفية جميلة ، وأخت جارنا الآخر قد استمتعت دونها بمشاهدة الرواية الجديدة فى الأوبرا . وأنها هى " قليلة البخت" بالنسبة إلى نساء العالمين ، وتعقب على ما تقدم بأن "خزين البيت" قد انتهى ، والنقود قد نفدت قبل انتصاف الشهر .

ولا حيلة لى إزاء هذه الشكاوى إلا أن أستجمع كل ما أوتيت من بلاغة وحسن اعتذار، وألقى محاضرة قيمة فى شكوى الزمان وقلة الإنصاف وضعف المرتب وتأخر الترقية ... وفى خلال هذا الحوار البديع يشاغبنى أحد أطفالنا بطلب قرش ، ويداعب الآخر تلابيبى وفى يديه أثر الطعام، معاتبا غاضبا لأنى نسيت أن أحضر معى الفاكهة التى طلبها فى الصباح ، وتتشبث الصغرى بساعتى الذهبية لتلهو بها وإلا ملأت الجو صراخا وعويلا ، وما تلبث أن تلقى بها على البلاط فتهشمها تهشيما ، فإذا هاجت أعصابى وأخذت أبطش بالمذنبة وبالأبرياء، ثارت زوجتى منكرة علىّ هذه القسوة ، بل هذه الوحشية ! وقد يتفق أن يكسر أحد الأطفال صحنا صغيرا لا يتجاوز ثمنه قرشا أو قرشين ، فتشبعه أمه الحنون ضربا لأنه أتلف المتاع وأخل بالأمن العام ! وتنسيها الأنانية معانى الرقة والحنان التى كانت تلقنها إياى قبل لحظات !

أؤكد لك ياسيدى أن هذه "المسليات" اليومية تفعل فى أعصابى أضعاف أكثر مما تفعله متاعب الديوان ، وقسوة الأنظمة ، وغطرسة الرؤساء .

وزوجتى حفظها الله ، تأبى إلا أن تؤيد مطالبها الخاصة بالمنزل و بالزى ، بالأدلة العملية ، و بالمناظر المقنعة ، فقلما تستقبلنى فى البيت بغير الأزياء الناطقة بالفقر والإفلاس ، فعلى جسمها " الجلابية " الممزقة من بعض الجوانب ، وعلى رأسها ذلك الشىء الأسود الذى لا أدرى اسمه ولا أظن له حكمة غير التخويف والإرهاب ، ومن المحتم أن يكون شعرها مشعثا كشعور النادبات ، وأن تظل تذرع أرض المنزل بقبقاب قديم مزعج مقلق فى اليقظة وفى المنام . أما الفساتين البديعة وطلاء الوجه ، وتنسيق الشعر ، والافتنان فى الزينة ، وكل ما يذهب فى شرائه أكثر مرتبى ، فلا أستمتع برؤيته ولا هى تتجلى به إلا عند الخروج للزيارات أو للسينما أو المسرح ، وبدلا من أن تدخل علىّ السرور فى المنزل بتجميل وجهها و إبداء زينتها ، تدخر كل هذا للشارع فتظهر آية فى الروعة والفتنة ؛ حتى كأنها لوحة فن ، ومعرض أزياء ، ونموذج جمال .

هل لى مع هذه الحال بد من أن أمضى إلى الفراش ألتمس فيه بعض الراحة و بعض النسيان ؟ على أنى أنام فى أكثر الأيام مؤرقا معاكسا بالضجة التى لا تنقطع ، و بمشاحنات الخادمة والأطفال مع خدم الجيران وأطفالهم ، وما وراءها من تلاح وعتاب بين زوجتى والزوجات الأخر ، وما قد أجر إليه من نزاع مع الأزواج الآخرين ، فنومى ويقظتى معرضان دائما لهذه "الاضطرابات" والمعارك التى لا هدنة فيها . وما أفدح النكبة إذا ازدحم أطفال الحارة حول " البيانو " المتنقل المدار باليد ، والذى يستقر وراء نافذة دارى مرددا أنغامه الثقيلة على السمع ، التى تحرمنى لذة المنام .

فإذا غادرت الفراش فى الساعة الخامسة أو السادسة ، بعد هذا النوم المقطع المؤرق ، فقد يحلو لى أن أتسلى ببعض إذاعات الراديو . لأنال بها تعويضا عما أصاب مزاجى من الخسائر الفادحة ، ولأثقف أذهان زوجتى وأولادى وأطرب أسماعهم ، فويل لى إذا صادفت محاضرة أدبية ، أو بحثا علميا أو اجتماعيا ، أو حديثا رسميا . هنا لا بد من إبطال الراديو حتى ينتهى هذا الحديث الثقيل على سمع زوجتى ، وتعود هى إلى الحديث الخفيف على قلبها ، فى المطالب ، والشكايات ، والأطفال والخادمات ، والجيران والجارات !

ولقد أحاول كسب رضاها فأدعوها إلى نزهة أو الى مشاهدة رواية ، فلا يكون الرد إلا تهكما ولذعا واتهاما ، "ماشاء الله ! أنى لك هذه الرقة وهذا العطف ؟ لماذا خصصت اليوم بهذه الدعوة ؟ لا بد أنك لم تجد صديقة تقضى معها هذه الليلة ! !" وما دمنا قد أشرنا إلى التهم والشكوك فانها حاضرة مع كل حركة تبدر منى ، فان فتحت النافذة تخفيفا من

الحر وطلبا للنسيم ، كان ذلك دليلا على رغبتى فى النظر إلى جارة جميلة ، وإن تأنقت قليلا فى هندامى فذلك استعداد لسهرة مع خليلة ! ومن المؤكد أنى أتعب فى تبرئة نفسى أمامها أكثر مما أتعب لو كنت أمام محكمة الجنايات ، حيث تجد الحجة والمنطق آذانا سميعة .

* * *

ونظام البيت يا سيدى له حديث آخر لا يقل فى طرافته ولطفه عن هذا الحديث ، فتحت السرير مصفاة من النحاس مملوءة ببطاطس معدّ للطهى غدا ! ، يتدحرج حولها وتحت الأرائك والكراسى عدد من البطيخ والشمام ، وبجانب السرير " كرنبة " ضخمة أو طائفة من رءوس القلقاس ! وربما حلا للسيدة أن تمسك بيد " الهون " وتدق " الكفتة " أو الثوم ، فى غرفة النوم !

وفى " البلكون " ترى حبال الغسيل ممدودة ، وقد نشرت عليها ملابسنا الداخلية ، معروضة على أنظار السابلة والمتفرجين ؟

وسأضرب لك مثلا جديدا من فوضى بيوتنا ، وأرجو ألا تحملك غرابته على الشك فى صدق الرواية ، أو اعتبارها نوعا من المبالغة أو التفكه ، فانها والله حق وقفت عليه من صاحبه : لى صديق فاضل تعلم فى مصر وفى فرنسا ، وجمع أحسن ما فى البلدين من ثقافة وخلق قويم ، دخل ليلة الى داره بعد السهرة فما كاد يوقد النور حتى تراءى لعينيه شبح هائل فى وسط البهو ، يبدو كالقيامة القائمة ، ثم تبينه بعد لحظات ، فهل تدرى ما ذا كان هذا الشبح الهائل العجيب ؟

كان جملا !

أى والله ، جمل عريض طويل ، نزل ضيفا على الأسرة المجيدة فى الليلة السعيدة !

وهذا الضيف الممتاز ، الذى ألقى الرعب فى قلب صاحب الدار وأشاع الرعدة فى بدنه ، قد أعدته زوجته العاقلة لحفلة زار ستقام فى صباح الغد أو فى مسائه ، لا أدرى !

* * *

وأعاذك الله يا سيدى من العداوة المستحكمة بين زوجتى وبين كتبى ومجلاتى ! إنى لأخلد أحيانا الى الكتاب أو المجلة ألتمس فى أحدهما معلما وجليسا وسميرا ، فاذا هى يملكها الغضب قائلة " أما لك من عمل فى البيت إلا النوم والقراءة ؟ ! أفلا طريق لإنفاق نقودك إلا هذه الأوراق السخيفة ؟ أليس أولى أن تنفقها فى شراء معطف لولدك ، أو فستان لى أو لابنتك ؟ أهكذا يذهب وقتك ومالك هباء ؟ ! " .

* * *

هـذه مناظر متفرقة من الرواية اليومية التى تمثل على مسرح المنزل ، وليست دارى هى الوحيدة التى تجرى فيها الحياة على هذا النحو العجيب ، بل إن كثيرا من أمثالى من متوسطى الناس ليكابدون ما أكابد ، ويشكون ما أشكو .

أتلومون مثلى بعد ذلك ، إذا التمس فى المقهى وفى مجالس الاخوان ترويحا عن النفس ، وفرارا من هذا الجحيم ؟

تنهوننا عن النظر الى البيت كأنه فندق أو مطعم ، وكم تمنينا لو وفقنا حتى الى جعل البيت فندقا أو مطعما ! إذن لضمنا على الأقل أكلا نظيفا ، ونوما مريحا ، وبالا هادئا ، وانفاقا منظما ، وبعدا عن الخلافات والمشاغبات .

نحن قانعون حتى بهذا ، قانعون حتى بحياة شبيهة بحياة الفنادق والمطاعم ، وتلك الأمنية على هوانها لاتزال عزيزة المنال !

" قارئ "

من حكم شوقى

— العاقل من ذكر الموت ولم ينس الحياة .

— كل نار طاهرة مطهرة إلا نار الحقد .

— فى شهوة النفس شقوة الجسد .

— ولد البخيل مرحوم ، وولد المبذر محروم .

— على كتب السماء تهجّى الحكمةَ الحكماء .

— يا شاهد الزور ، أنت شر موزور ، ضلّلت القضاة ، وحلفت كاذبا بالله ، وملت الأبرياء بأذاة ، وحلت بين القصاص والجناة ، والله يقول "ولكم فى القصاص حياة" .